

قانون الارتقاء من النون إلى الياء - ثنائية اللسان والإنسان صانع العمران -

The Law of Ascension from Noon to Ya- The Duality of Language and Humanity as the Creator of Civilization-

طبي فتيحة

جامعة زيان عاشور بالجلقة (الجزائر)، taibfatiha81@gmail.com

تاريخ النشر: 2024/11/02

تاريخ القبول: 2024/10/25

تاريخ الاستلام: 2024/09/09

ملخص:

الارتقاء سنة ربانية ونظام كوني كائن في الأكوان وفي الألوان وفي الأعوان، والارتقاء أيضا قانون يعكس دهاء ابن خلدون، ذلك العالم الموسوعي المتعدد المعارف والفنون، مكتشف علم الاجتماع بالإجماع، إذ يقر أن الإنسان يعيش في بيئة اجتماعية يتجسد فيها نشاطه الإنساني قولاً وفعلاً، ويتدرج فيها علماً وعملاً.

والحديث عن الإنسان هو حديث عن اللسان وهما في رحاب القرآن الكريم وجهان لعملة واحدة، وهذه الثنائية تقابلها ثنائية البيان والعمران عند عبد الرحمان الذي خلص إلى أن اللغة إنما ترتقي بارتقاء الحضارة والعمران وتتقهقر بتراجع الحضارة والعمران، واللغة بين هذا وهذا ومع كل هذا فضاء ممدود بلا حدود، والإنسان رغم قدرته على استعمالها غير أنه عاجز عن استيعابها لأنها في نهاية المطاف ملكية جماعية لا خاصة.

كلمات مفتاحية: قانون الارتقاء، ابن خلدون، اللغة، المجتمع، التواصل.

Abstract:

The concept of elevation is a divine principle and a cosmic system present in the universes, in colors, and in helpers. Elevation is also a law that reflects the wisdom of Ibn Khaldun, that encyclopedic scholar with diverse knowledge and arts, unanimously recognized as the discoverer of sociology. He acknowledges that humans live in a social environment where their human activity is manifested in speech and action, and they progress in knowledge and practice within it.

Talking about humans is also talking about language, and both are, in the context of the Holy Quran, two sides of the same coin. This duality corresponds to the duality of expression and civilization in the work of Abdul Rahman, who concluded that language only elevates with the advancement of civilization and declines with its regression. Language exists in a vast space without limits, and although humans have the ability to use it, they are ultimately unable to fully comprehend it, as it is, in the end, a collective ownership rather than a private one.

Keywords: The law of advancement, Ibn Khaldun, language, society, communication

1. مقدمة:

في البداية أود أن أشير إلى العنوان وبالضبط في قولي: من النون إلى الياء. إذ جرت العادة أن نسمع أو نقرأ من الألف إلى الياء وهو الترتيب الألفبائي المشهور، ولكن لضرورة العنوان -إن جاز ذلك- حلت النون محل الألف، فالنون مقطع صوتي من كلمة قانون، ولذا فضلت أن يكون مقالي معنون هكذا:

2. قانون الارتقاء من النون إلى الياء

من معاني الفعل ارتقى: صعد وصعود السلم يكون درجة درجة مثلما البناء: لبنة لبنة. ومن معاني الفعل كذلك نجد: ارتفع، تسلق، تقدم، رقي، سما، سمق، شمع، صعد، طلع، عاد، علا، ناف، تدرج، والتدرج سنة ربانية وقانون من القوانين الكونية ونظام إلهي، كائن في الأكوان وفي الألوان وفي الأعوان..... إن مسألة "أصل الأنواع" النباتية والحيوانية من المسائل التي استرعت أنظار العلماء والمفكرين ففي أواسط القرن 19 قدم داروين كتابه المشهور "أصل الأنواع".

غير أن نظرية التطور أو نظرية النشوء والارتقاء قديمة قدم ابن خلدون الذي اكتشف علم العمران (السوسيولوجيا) خمسة قرون قبل "أوغست كونت" إذ تحدث العلامة عن مذهب النشوء والارتقاء في علم الاجتماع مثلما تحدث غيره عن مذهب التطور مع أن فكرة التطور تختلف في حد ذاتها عن فكرة الارتقاء لأن التطور قد يكون ارتقاءيا وقد يكون انحطاطيا.

الجدير بالذكر هنا، أن ما بين النون والياء في قولي من النون إلى الياء في عنوان المقال نجد حرفين فقط هما: الهاء والواو. إذ في الترتيب الألفبائي نجد: ن. ه. و. ي.

ولو جمعنا هذه الحروف وضممنها في كلمة واحدة لوجدنا: الفعل هوي ليصبح العنوان بعد ترجمته من حالته الأولى إلى حالته الثانية: قانون الارتقاء هوي ومعنى الفعل نحن هوي: نحن نسقط، إذ يدل على السقوط من الأعلى أو النزول الحر المباشر.

فمن جهة تدل كلمة الارتقاء على الصعود والارتفاع ومن جهة أخرى تدل كلمة هوي على السقوط والنزول وفي هذا عبرة لمن يعتبر فالكثير منا يظن أنه يرتقي إلى الأعلى وهو من حيث لا يدري ينزل إلى الحضيض الأسفل. إن مفهوم الارتقاء مفهوم واسع وعميق ومتشعب، إذ نجده في كل نواحي الحياة، إذ هو قانون في الحياة فدورة الحياة قائمة على مفهوم الارتقاء، فكل شيء على وجه هذه الأرض يدور في مراحل متعاقبة تشكل دورة حياته كالإنسان والحيوان والنبات فالإنسان مثلاً يمر بمراحل من بداية خلقه في بطن أمه حتى نهايته الحتمية وهي موته. لقله تعالى: «ثُمَّ خَلَقْنَا النَّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَبَارَكُ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ»¹.

¹ - سورة المؤمن، الآية رقم 14.

إنها حياة الإنسان يتدرج فيها مرحلة مرحلة فبعد الولادة من رضيع إلى طفل إلى شاب، إلى رجل إلى كهل، إلى شيخ وهكذا وهو في نفس الوقت يتدرج في مكانته العائلية فمن: ابن إلى أب إلى جد إلى أب الجد الذي هو نفسه جد الأب، إلى جد الجد وهكذا، مثلما هو التدرج في الرتب العسكرية، ومثلما يتدرج الإنسان في النمو الجسدي يتدرج كذلك في النمو المعرفي، وإذا كان هناك: الأمس واليوم والغد فإن هناك: السابق والمصاحب واللاحق.

إن الحديث عن الزمن هو الحديث عن الثواني والدقائق والساعات والأيام والأسابيع والأشهر والسنوات والقرون.....، فالناظر إلى الساعة مثلا يجد أن دائرة الثواني تكرر نفسها كذلك الأمر بالنسبة إلى الدقائق والساعات لكنها مع كل دورة تخطو خطوة في الزمن.

تختلف هذه الدائرة عن الدائرة الحلزونية التي مع كل دورة تزداد اتساعا وارتفاعا.

أما الدائرة الحلزونية فانا نجد أن «النظرية الارتقائية مبنية على طبقات خمس مترافقة يعبر عنها ابن خلدون بالأطوار ويقصد بالطور الفترة الزمنية التي ينتقل فيها الكائن لسانيا، كان أو إنسانيا أو حيوانيا من صورته الأولى إلى صورة أخرى كما أن لو كان حقيقة أخرى وليست تطورا داخليا لحقيقة واحدة تنتقل من طور إلى طور حتى تنتهي إلى غايتها»¹.

إن الارتقاء مثلما هو موجود في الزمن موجود في الأعداد وموجود في الأضداد، كالطول والعرض فمن وحدات قياس الطول التقليدية نجد: الأنملة، الأصبع، الفتر، الشبر، الذراع، الوار، الباع، كذلك نجد الارتقاء في الماء والهواء والغذاء هذه الأمور الثلاثة التي لا يحيا الإنسان إلا بها.



ينمو الإنسان في الزمن والأطراف الثلاثة هناك وهناك تتجدد فيها الدورات ومع نهاية كل دورة هي بداية لدورة جديدة.

خلق الإنسان وخلق معه اللسان، وإن ما جاء في القرآن «عن الكلام واللسان وما يتصل بهما من المعاني كالتبليغ والتذكير يتجاوز الحدود الضيقة التي حصرت فيها اللسانيات الحديثة الكلام البشري وي طرح قضية الخلق والإنشاء والتوليد في أبعد صورها الحقيقية والغيبية كما يطرح قضية الخلق خلق الإنسان وعلاقته باللسان يعني بالكلام في جوانبه المختلفة المادية منها والروحية»².

¹ - محمد الصغير بناني، المدارس اللسانية، دار الحكمة، الجزائر، 2001، ص 52

² - محمد الصغير بناني، مرجع سبق ذكره، ص 11، 12.

يحيا الإنسان باللغة وتحيا اللغة بالإنسان فلا وجود لأحدهما دون الآخر، هذا الإنسان ميزه الله عز وجل بنعمة العقل واللغة صورة للعقل ومرآة له يقول عبد الصبور شاهين: «فلما كانت اللغة ثمرة العقل والعقل جوهر الإنسان، كان من المنطوق أن تقرر أن اللغة مجلى هذا الجوهر، ومظهره، فالعقل كالكهرباء يعرف بأثره، ولا ترى حقيقته»¹.
والحديث عن هذه اللغة حديث مستهلك إذ للغة من التعريفات بعدد علماء اللغة لما لها من قيمة داخل الجماعة اللغوية الواحدة فهي وسيلتهم للتفاهم والتواصل والتبليغ وللانسجام مع الآخرين فلا لغة بدون مجتمع ولا مجتمع بدون لغة.

الإنسان واللسان وجهان لعملة واحدة لذا لا يمكن بأي حال من الأحوال حصر الكلام في دائرة الأصوات والكلمات والتراكيب لأن اكتشاف حقيقتها ليس إلا «اكتشافا لحقيقة الإنسان انطلاقا من الحروف وارتقاء إلى الإنسان بكامله والكشف عن هذه الحقيقة يجب أن يظل الغاية القصوى في كل دراسة لسانية علمية أو أدبية»².
إن الحديث عن اللسان والإنسان في رحاب القرآن هو حديث عن البيان والعمران عند عبد الرحمان صاحب مذهب النشوء والارتقاء، إذ يرى أن نهاية الفكرة بداية العمل ونهاية العمل بداية الفكرة وهذا ما يتجسد كما أسلفنا في العمران كونه امتدادا للبيان³.

وكما يمر الإنسان بمراحل طبيعية يمر اللسان بدوره بمراحل يتدرج فيها من مستوى لآخر ابتداء بالصوت ومرورا بالصرف والتركيب والدلالة ووصولاً عند البلاغة والأسلوب وهو ما نسميه بالارتقاء اللغوي، إذ ترتقي اللغة بارتقاء المخاطب والمخاطب على حد سواء، ولهذا فإن الارتقاء هو كذلك فن من فنون الإلقاء، ولهذا قال الخليفة: «خاطبوا الناس على قدر عقولهم». حتى يكون هناك تفاهم وتواصل فاللغة هي جسر التواصل بين أفراد المجتمع - قال عنها ابن خلدون: «اللغة- في المتعارف- هي عبارة المتكلم عن مقصوده واللغة ملكة اللسان وهو في كل أمة بحسب اصطلاحاتهم»⁴.

تشكل اللغة مع الفكر وجهين لعملة واحدة، إذ أننا لا نستطيع البتة أن ننطق بما لا قدرة لنا على التفكير به⁵.
يقول الآمدي: «لما كان الواحد لا يستقل بتحصيل معارفه بنفسه وحده دون معين ومساعد له من نوعه، دعت الحاجة إلى نصب دلائل يتوصل بها كل واحد إلى معرفة ما في ضمير الآخر من المعلومات المعنية له في تحقيق غرضه لذلك استخدم الإنسان ما يتركب من المقاطع الصوتية التي خص بها نوع الإنسان دون سائر أنواع الحيوان ومن اختلاف تركيبات المقاطع الصوتية حدثت الدلائل الكلامية والعبارات اللغوية»⁶.

¹ - عبد الصبور شاهين، اللغة العربية لغة العلوم والتكنولوجيا، دار الاعتصام، 1986، ص 37.

² - محمد الصغير بناني، مرجع سبق ذكره، ص 51.

³ - المرجع نفسه، ص 52.

⁴ - ابن خلدون عبد الرحمان، المقدمة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط9، 2006، ص 477.

⁵ - عبد القادر عبد الجليل، علم اللسانيات الحديثة، دار صفاء، عمان، ط1، 2002، ص 29.

⁶ - الآمدي علي بن محمد، الأحكام في أصول الإحكام، تح: إبراهيم العجوز، بيروت، 1985، ص 16.

في طبات كلام الأمدي إشارة إلى دورة الكلام أو دورة التخاطب التي تستلزم مخاطب ومخاطب وبينهما رسالة قد تكون منطوقة (وهو الأصل) وقد تكون مكتوبة.

خلق الإنسان وخلقت معه الحواس الخمس التي منها حاسة السمع وحاسة الرؤية وحاسة الذوق فالإنسان يتذوق الكلام الموجه إليه سواء كان مكتوبا (حاسة الرؤية) أو منطوقا (حاسة السمع) ومع الأولى حروف ومع الثانية أصوات «كان مدخل النحاة إلى إنشاء أصل وضع الحرف هو فكرة "ذوق الحروف" وقد كان الغرض من هذه الفكرة في البداية أن نختبر المخرج والصفات التي تحدد نطق الحرف في حالة أفراد»¹.

وهو ما فعله الخليل وسيبويه فالخليل رتب الأصوات في معجم العين ترتيبا ارتقائيا من أقصى الحلق إلى الشفتين مروراً بحروف الحنك ثم الأضراس كما جعل حروف العلة آخرا وهي حروف هوائية، إذ يؤكد الخليل بهذا الإنجاز الرائد عبقريته وتفوقه².

تلي مرحلة الأصوات مرحلة الكلمات ثم مرحلة الجمل ثم مرحلة النصوص وهكذا يتجسد اللسان في مظاهر مختلفة متدرجة من مستوى لآخر كما تتدرج الألوان لترسم صورة في غاية الإبداع والإتقان.

هي اللغة إذا موجودة وحاضرة في كل زمان ومكان وهي عند عبد الرحمان واسعة جدا، إذ لا يمكن لأي إنسان مهما كان أن يحصرها، لأن هذا الإنسان رغم قدرته على استعمالها هو عاجز كل العجز عن استيعابها³.

لأن هذه اللغة ملكية جماعية لا خاصة، فلو كانت خاصة لفقدت قدرتها على التوصيل، يقول جاكسون: «إن اللغة هي الشيء الوحيد الذي لا يمكن تأميمه، لأنها تولد كملكية جماعية لا خاصة، إذ لو كانت خاصة لفقدت قدرتها على التوصيل»⁴.

وهذا ما جعل مستعملي اللغة يتباينون في مسائل مختلفة كالأداء اللغوي، والقدرة التواصلية، وكذا التمكن اللغوي، وهذا ما جعل أقدار الكلام تختلف باختلاف أقدار المستمعين، فالكلام مراتب ودرجات فهناك كلام عادي وهناك كلام إبداعي وهذا يعني أن اللغة تحمل خاصية التحول من الإيصالية إلى الفنية (الكلام البليغ).

«وهذا التطور الارتقائي، إذا طبقناه على الكلام كان الارتقاء كالتالي ففي الأسفل نجد الدلالات التي لا تتحدد أبعادها إلا إذا أدرجت في شبكة نحوية والشبكة النحوية لا تظهر قيمتها الكلامية إلا إذا أدرجت في الطبقة التي فوقها طبقة البلاغة والبلاغة التي هي مطابقة الكلام لمقتضى الحال ترتقي إلى طبقة الأسلوب التي تجمع العبارة البلاغية وتضيف إليها البديع أي إبداعات المتكلم لأن الأسلوب هو العلامات الدالة على شخص المتكلم أو الصانع للعرمان»⁵.

¹ - تمام حسان، الأصول، عالم الكتب، القاهرة، 2000، ص 109.

² - ينظر: ابن حويلي الأخضر ميدني، المعجم اللغوي العربي، دار هومة، الجزائر، 2003، ص 56 - 60.

³ - ابن خلدون، مرجع سبق ذكره، ص 477.

⁴ - ينظر: صلاح فضل، نظرية البنائية في النقد الأدبي، القاهرة، 1992، ص 170.

⁵ - محمد الصغير بناني، مرجع سبق ذكره، ص 54.

وقد أفاض علماء العرب قديما في قضية صناعة الكلام نظما ونثرا وأقروا إنما الصناعة تكون في الألفاظ لا في المعاني لان المعاني واحدة وموجودة عند الكل وهذا ما جعل ابن خلدون يقول: «وتأليف الكلام للعبارة عنها هو المحتاج للصناعة كما قلناه وهو بمثابة القوالب للمعاني، فكما أن الأواني التي يغترف بها الماء من البحر منها آنية الذهب والفضة والصدف والزجاج والخزف والماء واحد في نفسه، وتختلف الجودة في الأواني المملوءة بالماء باختلاف جنسها لا باختلاف الماء، كذلك جودة اللغة وبلاغتها في الاستعمال تختلف باختلاف طبقات الكلام في تأليفه، باعتبار تطبيقه على المقاصد، والمعاني واحدة في نفسها، وإنما الجاهل بتأليف الكلام وأساليبه على مقتضى ملكة اللسان، إذا حاول العبارة عن مقصوده، ولم يحسن، بمثابة المقعد الذي يروم النهوض ولا يستطيعه، لفقدان القدرة عليه»¹.

يذكرنا بتشبيه ابن خلدون لمستويات الكلام بأنواع الأواني المختلفة (الذهب، الفضة، الزجاج، الخزف،) تشبيه دي سوسير لبيادق لعبة الشطرنج حين شبه اللغة بها وحين رأى أنه لا تهم المادة التي صنعت منها هذه البيادق (من حديد أو من ذهب أو من خشب أو من زجاج) لأن قانون اللعبة واحد مهما اختلف نوع البيدق، والأمر نفسه بالنسبة للغة، (اللغة نظام من العلامات).

«وكيفية صنع التراكيب الكلامية ككيفية صنع التراكيب العمرانية تخضع للذكاء والحدق ولذلك فكر ابن خلدون في الجمع بين التراكيب العمرانية والتراكيب اللسانية في علم واحد للتراكيب سماه فقه التراكيب.... وفقه التراكيب يتلخص في نظر ابن خلدون في مفهوم الأسلوب وهو أسمى ما توصل إليه التفكير الخلدوني في لسانياته الارتقائية»².

والأسلوب هو نمط حياة، هو طريقة عيش، هو حرية رأي، هو حرية تفكير هو اختيار بعد احتيار، هو انتقاء فردي، ذاتي، شخصي خاص، هو تعبير عن مكونات الذوات، وهو بدون حذر وجهة نظر، تمثل في نهاية المطاف صاحبها، وهو قد يصيب وقد يخطئ.

وتحت فصل: في صناعة الشعر ووجه تعلمه يتحدث ابن خلدون عن الأسلوب، إذ يقول: « ولندكر هنا مدلول لفظة الأسلوب عند أهل هذه الصناعة وما يريدون بها في إطلاقهم، فاعلم أنها عبارة عندهم عن المنوال الذي تنسج فيه التراكيب أو القالب الذي يفرغ فيه، ولا يرجع إلى الكلام باعتبار إفادته كمال المعنى الذي هو وظيفة الإعراب، ولا باعتبار إفادته أصل المعنى من خواص التراكيب، الذي هو وظيفة البلاغة والبيان ولا باعتبار الوزن كما استعمله العرب فيه الذي هو وظيفة العروض فهذه العلوم الثلاثة خارجة عن هذه الصناعة الشعرية، وإنما ترجع إلى صورة ذهنية للتراكيب المنتظمة كلية باعتبار انطباقها على تركيب خاص، وتلك الصورة ينتزعها الذهن من أعيان التراكيب وأشخاصها ويصيرها في الخيال كالقالب أو المنوال، ثم ينتقي التراكيب الصحيحة عند العرب باعتبار الإعراب والبيان،

¹ - ابن خلدون، مرجع سبق ذكره، ص 495.

² - محمد الصغير بناني، مرجع سبق ذكره، ص 54، 55.

فيرصها فيه رصا كما يفعله البناء في القالب أو النساج في المنوال، حتى يتسع القالب بحصول التراكيب الوافية. بمقصود الكلام.¹

إذا معنى الأسلوب عند ابن خلدون ليس مجرد التوثيق بين التراكيب النحوية والتراكيب البلاغية والشعرية وإنما هو هذه الأطراف شرط أن تكون مشفوعة بالذوق الذي هو محل إدراك طعوم الكلام ووجدانته².

ولأن طبيعة الذوات المتذوقة مختلفة البصمات فإن أذواقنا كذلك مختلفة وهذا ما يجعل عملية التذوق عملية عصبية لا يحكمها نظام ولا قواعد وإذا أردنا تعريف مصطلح الذوق: فإنه لغة: من ذاقه ذوقا ومذاقا ومذاقة اختبر طعمه وتذوقه ذاقه مرة بعد مرة³.

أما اصطلاحاً: «قوة يقدر بها الأثر الفني أو هو ذلك الاستعداد الفطري المكتسب الذي نقدر به على تقدير الجمال أو الاستمتاع به ومحاكاته بقدر ما نستطيع في أعمالنا وأقوالنا وأفكارنا»⁴.

فمن له قدرة على تذوق الجميل فإن له قدرة موازية تستهجن القبيح وتنفر منه.

هي خبرة ذواق أم هو ذوق خبير!.

أيهما الأسبق ألد الخبرة من الذوق أم يلد الذوق من الخبرة؟.

وهل صحيح أن الذوق فطري والخبرة مكتسبة؟!.

الأكيد أنه لا يختلف اثنان أن عبد الرحمان ابن خلدون مولع مفتون بجمع أصناف الفنون والعلوم ومن هذه العلوم علم اللسان إذ تشكل ثنائية اللسان والإنسان مع ثنائية البيان والعمران عملاً شديداً الإتقان والاعتزان، وهو من بين علماء العرب الذين استطاعوا في ذلك الزمان أن يصلوا إلى ما وصلت إليه الدراسات الحديثة الآن فلهم منا كل الشكر وجزيل الامتنان والعرفان.

قائمة المصادر والمراجع

• القرآن الكريم

- ابن خلدون عبد الرحمان، المقدمة، دار الكتب العلمية، بيروت، طو، 2006.
- الآمدي علي بن محمد، الأحكام في أصول الإحكام، تح: إبراهيم العجوز، بيروت، 1985.
- البستاني بطرس، محيط المحيط، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، 1998.
- بناني محمد الصغير، المدارس اللسانية، دار الحكمة، الجزائر، 2001.
- تمام حسان، الأصول، عالم الكتب، القاهرة، 2000.

¹ - ابن خلدون، مرجع سبق ذكره، ص 489، 490.

² - ينظر: المرجع نفسه، ص 483، 484.

³ - بطرس البستاني، محيط المحيط، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، 1998، مادة (ذوق).

⁴ - أحمد الشايب، أصول النقد الأدبي، دار الأنجلو المصرية 1973، ص 20.

- شاهين عبد الصبور، اللغة العربية لغة العلوم والتكنولوجيا، دار الاعتصام، 1986.
- الشايب أحمد، أصول النقد الأدبي، دار الأنجلو المصرية 1973.
- عبد القادر عبد الجليل، علم اللسانيات الحديثة، دار صفاء، عمان، ط1، 2002.
- فضل صلاح، نظرية البنائية في النقد الأدبي، القاهرة، 1992.
- ميدني ابن حويلي الأخضر، المعجم اللغوي العربي، دار هومة، الجزائر، 2003.